به فجاءت به أورق جعداً إجماليا خدلج الساقين ساغ الالبتين فقال رسول الله ﷺ لولا الإيمان لكان لى ولها شان قال عكرمة فكان بعد ذلك أميراً على مصر وكان يدعى لأمه وما يدعى لأبيه .

٥ السبيل العاشرة . —

بيان أن الأطفال برآء من الذنوب وقد ينطقون بالحكمة :

ساق الإمام ابن الجوزى بعض الأمثلة على ذلك فقال تحت عنوان [ذكر المصطفيات من بنيات صغار تكلمن بكلام العابدات الكبار] (قال عبد الله بن محمد بن وهب : كان ليحيى بن معاذ إبنة صغيرة السن جداً فطلبت من أبيها شيئاً فقال لها : يابنتى اطلبى ذاك من الله فقالت : ياأبت أو ما أستحيى من الله أن أتقدم إليه فى شىء يوكل ، وقال أبو العباس ابن مسروق : كنت باليمن فرأيت صياداً يصطاد السمك على بعض السواحل وإلى جنبه إبنة له فكلما اصطاد سمكة فتركها فى دوخلة معه رمت الصبية السمكة إلى الماء فالتفت الرجل فلم ير شيئاً فقال لابنته : أى شىء عملت بالسمك؟

فقالت : يا أبى أليس سمعتك تروى عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تقع سمكة فى شبكة إلا إذا غفلت عن ذكر الله عز وجل فلم أحب أن فأكل شيئاً غفل عن ذكر الله عز وجل فبكى الرجل ورمى بالصنارة »

٥ وقال الإمام ابن الجوزى [بلغنا أن أمير بلدة حاتم الأصم اجتاز على باب حاتم فاستسقى ماء فلما شرب رمى إليهم شيئاً من المال فوافقه أصحابه ففرح أهل الدار سوى بنية صغيرة فإنها بكت فقيل لها : ما يبكيك؟ قالت : مخلوق نظر إلينا فاستغنينا فكيف لو نظر إلينا الخالق سبحانه وتعالى][1] .

---

٥ (١) صفة الصفوة جـ٢ صـ٥٥٥ ، ٥٥٦

• موقف حاكم عادل من الأطفال :

لقد دأب كثير من حكام المسلمين من السلف الصالح فى هذه الأمة على رعاية الأطفال وكان لعمر السبق بعد رسول الله ﷺ فى هذا السلوك الجميل (عن ابن عمر قال : قدمت رفقة من التجار فنزلوا المصلى فقال عمر لعبد الرحمن هل لك أن نحرسهم من السرقه ؟ فباتا أى عمر وعبد الرحمن يحرسانهم ويصليان ما كتب الله لهما فسمع عمـــر بكاء صبى فتوجه نحوه فقال لأمه : اتقى الله وأحسنى إلى صبيك . ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاءه فعاد إلى أمه فقال لها مثل ذلك ثم عاد إلى مكانه فلما كان من آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال لها : ويحك إنى لأراك أم سوء مالى أرى ابنك لا يقر منذ الليلة ؟ قالت يا عبد الله قد أرمتنى[1] ؟ منـــذ الليلة : إنى : أريغه[2] على الفطام فيأبى قال : ولم ؟ قالت : لأن عمر لا يفرض إلا للعظيم[3] . قال وكم له ؟ قالت كذا وكذا شهر . قال : ويحك[4] لا تعجليه فصلى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء فلما سلم . قال بئسا لعمركم قتل من أولاد المسلمين ؟ ثم أمر منادياً فنادى أن لا تعجلوا صبيانكم على الفطام فإنا نفرض لكل مولود فى الإسلام . وكتب بذلك إلى الآفاق أن يفرض لكل مولود فى الإسلام[5] لقد آلم عمر بكاء الطفل فاقض مضجعه فلم يذق النوم لأنه راع ويعلم عمر أن الله سائله عن رعيته قضهم وقضيضهم — أى عن رعيته كلها — عما حدا

(١) • أرمتنى : أضجرتنى ومعنى الضجر : القم

(٢) • أريغه : أديره عليه وأريده منه. انظر لسان العرب حـ٣ ص١٧٧٨

(٣) • فطم : جمع : فطيم وهو الذى انتهت مدة رضاعته .

(٤) • ويح كلمة تقال للترحم .

(٥) • الإمام بن الجوزى فى كتابه [صفة الصفوة] حـ١ ص١١٨

يعمر أن يبحث عما يؤلم الطفل ويدفعه إلى الصراخ فكان أرحم بالصبي من أمه ولما ألح عليها فى رفع ما يسبب صراخـــه أبدت ضجرها فليت الرعاء يقومون على رعيتهم فيتعبون فى دنياهم حتى يستريحوا فى آخرتهم فلن تدوم مناصبهم ولن يبقى جاههم بل يتولى سلطانهم . ويوم القيامة تنخلع أفئدتهم من هول حسابهم فيحاسبون على النقير والقطمير .

• ما يدور فى المجتمعات الغربيه :

لو عرف المجتمـــع الغربى أسلوب معاملة الأطفال من الإسلام لاعتنقوه لأن فى تطبيقه سعادة فى الدنيا . ويوم القيامة يكون الثواب من الله تعالى .

• ما يدور فى مجتمعات الغرب :

محكمة أمريكية لطفل بتغيير والديه: تحت هذين العنوانين كتبت صحيفة « أخبار الحوادث » ما يأتى : [والصبي الذى رفع قضية لتغيـــير أبويه واستبدلهما بغيرهما قد حققت له محكمة الأحداث فى أورلاندو بولاية فلوريدا أمنية فى الاسبوع الماضى ، . وحكم القاضى بانهاء كافة الروابط بين الصبي وأمه الطبيعيه . وسمح للعائلة التى عاش بينها منذ شهر أكتوبر من العام الماضى أن تتبناه رسمياً فيصبح الابن رقم (تسعة) فيها :

وأول ما قام به هذا الصبي ابن الاثنى عشرة عاماً بعد الحكم هو تغيير اسمه كاملا إلى اسم جديد ينتسب فيه إلى عائلته الجديدة واختار اسم شون بدلا من جوريجورى وأصبح اسمه اليوم شون رأسى وكأنما يقطع آخر شعرة مع ماضيه :

وقد شغلت هذه القضية الرأى العام فى أمريكا منذ أن صدر الحكم فى القضية الأولى التى قررت أن من حق الصبي من « حيث المبدأ » أن يتقدم

إلى القضاء ويرفع قضية تقطع أواصره بأبيه وأمه . والقارىء الذى يتابع « أخبار الحوادث » ربما يتذكر وقائع قضية « المبدأ القانونى » وتفاصيل ظروف الطفل التى نشرناها فى أعقاب الحكم فيها فى « أخبار الحوادث » خلال شهر يوليو الماضى .

وما أن حصل الصبى على الحكم الأول إلا وبادر برفع القضية المطلوبة على الفور وهى الحصول على [الطلاق] من روابط بنوته لأبويه وهو التعبير الشائع المطلق على هذه القضية الأولى من نوعها فى تاريخ القرابة الأمريكية . وبما أن الأب لم يهتم ولم يمانع منذ البداية فى إلغاء كافة الروابط الأبوية بابنه وبادر بالتنازل عنها على الفور فلم يبق سوى الأم التى صممت على أن تستعيد ابنها ورفضت بإصرار أن تنازل عن أمومتها له . ولكن هل مارست أمومتها ؟

كان هذا الشق هو مثار اهتمام المحكمة التى حاولت أن تجد إجابة عنه من خلال شهادات الشهود التى استمرت على مدى يومين اثنين حكم القاضى فى أثرهما بالاستجابة إلى مطلب الصبى والموافقة بناء على رغبته أن يصبح ابناء بالتبنى للمحامى جورج رأس وزوجته اليزابيث .. ومحكمة الأحداث ليس لها « محلفون » وإنما لها قضاة مختصين ومحامين متخصصين وخبراء اجتماعيين ونفسيين .

وحصل على الحكم له يوم ٢٥ سبتمبر ونشرته جميع الصحف الأمريكية قاطبة على صفحاتها الأولى وأجرت باربارا والترز المذيعة التليفزيونية الشهيرة فى أمريكا حديثاً مع الصبى الصغير كما تفعل مع الرؤساء والنجوم والمشاهير .

وقد شاهدت أمريكا كلها وقائع القضية الأخيرة واستمعت إلى شهادات الشهود بما فيهم الصبى الصغير نفسه فقد أذاعت شبكة [سى . ان . ان] الجلستين على مدى اليومين اللذين استغرقتهما القضية وبعد أن سقطت تماماً

كل غلالات السرية التى أحيطت بها القضية الأولى ... فهنا تحاط قضايا الأحداث دوماً بالسرية ولا يعلن عن أسماء أطرافها ولكن أهمية هذه القضية لكونها السابقة الأولى فى تاريخ الولايات المتحدة جعل المحكمة تتنازل عن دواعى السرية وحتى يشهد المجتمع الأمريكى كله ويقتنع أن الحكم جاء فى موضعه ولمصلحة الصبى .. ولكن هيهات فقد تفجر النقاش ومايزال . .

• بداية الدراما الأمريكية :

والدراما الأمريكية بدأت فى أكتوبر من العام الماضى عندما زار المحامى جورج راس مركز الأحداث الذى كان يعيش فيه جريجورى وشاهده يجلس وحيداً بعيداً من صخب الأطفال فسأل عنه وعرف قصته وفى شهادته أمام القاضى قال أن صورة الصبى الصغير لم تفارقه بعدما إنصرف فى ذلك اليوم لأنه جعله يذكر ماضية هو وطفولته التعيسه مع أب سكير بعد أن ماتت الأم .. واستيقظ من نومه فى اليوم التالى وقرر بالاتفاق مع زوجته أن يستضيفا ذلك الصبى ، والملاجىء فى الولايات المتحدة تسمح للعائلات الموثوق بها أن تستضيف طفلا من الملجأ لفترة من زمن ليذوق الحياة الأسرية ثم يعيدونه مرة أخرى إلى الملجأ اللهم إلا لو قرروا استضافته نهائياً بالتبنى . . ولكن كانت مشكلة جريجورى أن والديه على قيد الحياة ولابد من الحصول على موافقتهما .. وعارضت الأم وكانت القضية التى يؤكد (الأب الجديد) أنها باقتراح وتصميم من الصبى الصغير نفسه .. ما أكده جريجورى بشهادته الطويلة التى استغرقت ساعة كاملة فى المحكمة .. وأبدى فيها حضوراً وذكاء ومرحة خاطر غير عادية لمن فى مثل سنة .. ولكن فى أمريكا الأطفال هنا أعجوبة ولايختلفون فى شىء عن الكبار فى كثير غير الحجم الصغير .

دفاع الأم

دفاع الأم كان ضعيفاً وشهادتها أضعف ، قال أنها لم تكن تستطيع أن تعول ولديها على مرتب (جرسونة) لايزيد عن مائتى دولار فى الأسبوع ولكنها لم تتمكن من الدفاع عن قلة اهتمامها وعدم رعايتها..ولا موالاتها لابنها عندما كان يتنقل بين الملاجىء والأسر المضيفة .

وحتى مدير مركز الأحداث وهو الراعى القانونى للصبى بحكم القانون فقد شهد أمام القاضى أنه يفضل إنهاء فصم علاقة الأمومة بين مسز كنجزلى والصبى الصغير لأنها مجرد أم من الناحية البيولوجية فقط حملته جنيناً فى أحشائها فحسب وتركته بعدها يرعى حياته كيفما اتفق كما لو كان قطاً أو كلباً أليفاً . . بل وحتى الحيوانات الأليفة تجد من المشاعر والاهتمام والاهتمام بأكثر مما يقدمه بعض الآباء والأمهات لأبنائهم فى هذا الزمن الردىء .

واعترضت محامية الأم بأن الصبى الصغير فى وصف صعوبة حياته وأنه يختار العائلة الجديدة لأنها موسرة ويستمتع معها بطيب العيش . . ولكنها لم تتمكن من تبرير افتقاد الحنان الذى يجعل أى طفل أو صبى يهرع إلى مصدره ومهما كانت ظروف الحياة .

وبينما أكدت الأم فى شهادتها أنها أصبحت مستقرة اجتماعياً ونفسياً لحضانة ابنها فقد كذبتها « إشارة من البوليس قدمها محامى الصبى عن بلاغ إلى النجدة ورقم تليفونها — ١٩١ — من شقيق جريجورى الأصغر الذى يعيش حالياً مع الأم وعمره ثمانى سنوات يستدعى فيها البوليس يوم — ٢٨ أغسطس الماضى — لأن خطيب الأم الذى يعيش معهما يضربها

علقة وجرحها من شعرها على السلم والدماء تسيل منها... وكانت الأم قد أنكرت وقالت أن الكدمات وآثار الضرب هى بفعل قطة تسكعيت فيها فسقطت على السلم ولكن ابنها الصغير كذبها أمام البوليس .

فى القضية الكثير مما يتكرر فى شريحة كبيرة من الحياة الأمريكية. الأم أو الأب الذى يختفى من حياة الأطفال لسبب أو لآخر . . موت. ، أو سجن . أو إدمان خمر .. وتربية الأطفال بعائل واحد منهما كثيراً مايتخلى عن مسئوليته هو الآخر فالأم هى أيضاً فقدت أمها بالانتحار فى سن مبكرة وعاشت مع أب سكير وتوقفت عن دراستها فى سن مبكرة وتزوجت من أول شخص طلبها للزواج وكان هو الآخر سكير تركها هى والطفلين يواجهان الحياة .

لذا لم تبـــالغ الأم الجديدة (اليزابيث) عندما وقفت للشهادة هى الأخرى أمام القاضى وقالت أنها تشعر بالأسى من أجل الأم الطبيعية أو البيولوجيه للصبى لعلمها أنها عانت هى الأخرى من الإهمال والإساءة إليها كطفلة صغيرة ولو أنها تربت فى اسرة مترابطة وبيت متماسك لما كانت على هذا النحو من الإهمال .

أنصار حماية الطفولة

وبينما يعتقد أنصار حماية الطفولة أن هذا الحكم يمثل انتصاراً لدعاويهم القديمة بضروره امتداد الحقوق المدنية للمواطن إلى الأطفال والصبية تحت السن القانونية فإن المحافظين والتقليديين يرون رؤوسهم استنكاراً لهذا الاتجاه الجديد الذى سيؤدى بأن يرفع الآلاف من الصبية والبنات قضايا على ذويهم باعتبار أنهم أطفال غير سعداء ويريدون (الطلاق) منهم)[1] .

(١) صحيفة الحوادث الصادرة بتاريخ ٨ / ١٠ سنة ١٩٩٢ ص ٢٤

صور من بعض المجتمعات البشرية :

نقلت صحيفة الحوادث بعض صور التعذيب فى العالم كتبت تحت عنوان « هل أصبح أطفال العالم كلاباً ضالة ؟» (قتل الأطفال وتعرضهم للتعذيب بوحشية على أيدى أفراد من أسرهم أو الأغراب أصبح شيئاً مألوفاً فى الغرب ودول أمريكا اللاتينية وخاصة فى البرازيل حيث يقتلون « أطفال الشوارع » رمياً بالرصاص . كما لو كانوا كلاباً ضالة)[1]

ومن سوء المعاملة للأطفال شرع هؤلاء فى التخلص من حياتهم وقاموا بالانتحار ولقد وقع ذلك كثيراً ومن هذه الصور ما نقلته صحيفة الأخبار،[2] تحت عنوان « انتحار الصغيرات » كشفت الإحصائيات عن تزايد عدد حالات الانتحار بين صغار السن فى هونج كونج وكان آخرها انتحار تلميذة عمرها أحد عشر عاما ألقت بنفسها من الطابق الحادى عشر)

ومن المؤسف والمخزى أمام أجيال العالم القادمة مايفعله الجنود من رمى الأطفال الفلسطينين بالرصاص حين يرمونهم بالحجارة ليرحلوا عن بلادهم فتارة يصوبون بنادقهم إلى أعينهم وتارة أخرى إلى قلوبهم وأخرى إلى رؤوسهم فيقتلونهم وتنقل تلك الصور على شاشات التليفزيون إلى جميع أرجاء المعمورة ولا يتحرك أحد من المسلمين أو من غيرهم . فالذى تقوله الأجيال القادمة حين تعرض عليهم أفلام التراث إنهم يقولون كل شىء عن هذا العالم المجرم الذى مرض بآفة البكم والخرس وماتت من سلوكهم ولم يؤرق العالم أجمع ماتناقلته أجهزة الإعلام من اعتداء الجنود الصرب على الأطفال الإناث وهتك أعراضهن فى البوسنة والهرسك

---

(١) صحيفة الحوادث الصادرة بتاريخ ٢/ ٧ ١٩٩٢ ص ٣٠

(٢) العدد الصادر بتاريخ ٥ / ١ / ١٩٩٣ ص ١

لماذا ؟ لأنهن مسلمات ويؤمن بالله وبرسوله محمد - ﷺ - سينتقم الله من هذا الجيل الذى يعيش على الكرة الأرضية ومن رؤساء العالم . والصور التى أمامك تنطق بما يدور فى الصومال .

أيها الناس ولوا وجوهكم شطر الإسلام ففيه السعادة وفيه النجاة من النار .

أستاذ دكتور

شحات حسيب الفيومى

أستاذ التفسير

من حديث القرآن عن غزوة الخندق
« الأحزاب »

بقلم

أ. د. عبد السلام محمود الذهبي

قبل أن نتعرض لحديث القرآن عن غزوة الأحزاب يجدر بنا أن نتعرف على حال المسلمين والكفار قبل تلك الغزوة .

لقد مر بالمسلمين فور وصولهم إلى المدينة المنورة فترة من الزمن زادت على السنوات الأربع قبل أن تكون وقعة الأحزاب ، وفى تلك السنوات كانت الحرب قائمة بين الشرك والتوحيد بين الكفر والإسلام ، وكانت هناك الغزوات الكثيرة ما اشتهر منها وما لم يشتهر ، وكان على رأس هذى الغزوات غزوة بدر الكبرى التى كانت فى السنة الثانية من الهجرة . وفيها تم النصر للمسلمين وقويت شوكتهم وعز جانبهم ، وأصبحت دولتهم قوية عزيزة وكلمتهم عالية مرفوعة بعد أن كتب الله لهم النصر على الشرك والمشركين .

ثم كان فى السنة الثالثة غزوة أحد وكان فيها ما كان مما نعلمه جميعاً حيث حلت الهزيمة بالمسلمين وقتل منهم من قتل . وكان لذلك أسباب معروفة لا تخفى على من له المام بسيرة الرسول ﷺ .

ولما كان المسلمين قد تعلموا مما حصل لهم فى أحـــد فأنهم بأمر ربهم وتوجيه نبيهم كان لابد لهم من أن يثبتوا للأعداء أنهم ما زالوا على العهد الذى قطعوه على انفسهم من نصرة الله ولرسوله فأنهم قاموا عقب غزوة أحد ببعض الأعمال الحربية ربما كان أهمها اجلاء يهود بنى النضير من المدينة بعد أن نقضوا عهودهم وهموا بقتل الرسول ﷺ وفى شعبان من السنة الرابعة للهجرة كان الرسول ﷺ وأصحابه على موعد مع الكفار من قريش بقيادة أبى سفيان بعد أن سولت لهم أنفسهم أن القضاء على المسلمين أصبح ميسوراً لهم بعد ما تحقق لهم من النصر .

وحتى تكون كلمة الله هى العليا دائمـــاً ورايةالإسلام هى التى تعلو ولا يعلى عليها خرج الرسول ﷺ فى نفس الموعد لمقابلة الكفر والكافرين فيما عرف بعد ذلك بغزوة بدر الآخرة .

يقول الدكتور محمد أبو شهبة (خرج الرسول وأصحابه إلى بدر لقاء أبي سفيان واستعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي دوسار في ألف وخمسمائة من أصحابه .

وكانت بدر محل سوق يقصد كل عام للتجارة في شعبان يقيم فيها ثمانية أيام يتبادلون فيها التجارة) فلما وصلوا إليها أقاموا فيها ثمانية أيام في انتظار أبي سفيان .

وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى بلغوا عسفان وقبل مجيئه ، ثم ألقى الرعب في قلبه فبدا له أن يرجع فقال: يامعشر قريش ، إن هذا العام عام حرب : ولا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن وإني راجع فرجعوا فسماهم أهل مكة جيش السويق يريدون أنهم خرجوا لشرب السويق لا للحرب)[1] .

وقد حاول أبو سفيان أن يقوم بحيلة القصد منها إرهاب المسلمين حتى لا يخرجوا إلى بدر حب الموعد وبذلك يكون خلف الوعد من المسلمين وليس من قريش ، لذلك تراه يطلب من (نعيم بن مسعود الأشجعي) إن يذهب إلى المدينة فيتحدث هناك عن جيش الكفار وضخامته ومدى استعداده للقتال وقدرته حتى يفت ذلك في عضد المسلمين ويضعف من عزيمتهم وفعلا ذهب نعيم إلى المدينة وفعل ما طلب منه ولكن طاش سهمه وخاب أمله حتى لم يؤثر ذلك في نفوس المسلمين الأنيابا واستقراراً ، وقالوا ما قصه القرآن في ذلك (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل)[2] .

---

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة جـ٢ ص ٢٠١

(٢) سورة آل عمران الآية ١٧٣ .

مما تقدم نلحظ ما كان عليه حال أعداء الإسلام فى ذلك الوقت اليهود وقد أجلوا عن المدينة والمشركون وهم لم يحققوا بغيتهم ولم ينالوا مأربهم فالقضاء على الإسلام وعلى رسول الإسلام فلا عجب بعد ذلك ولا غرابة أن فدى هؤلاء وأولئك من أعداء الإسلام وقد حاولوا أن يوحدوا حملتهم ويجمعوا جموعهم ليلقوا محمدا ﷺ وصحبه لقاء رجل واحد واحد فتكون كما سولت أحلامهم الغلبة ويتمكنون بذلك من القضاء على العدو المشترك بالنسبة إليهم جميعا لكن الله من ورائهم محيط .

ومن هنا بدأ التفكير والتدبر بما عرف بعد باسم غزوة الأحزاب أو الخندق فقد خرج [حيى بن أخطب] سيد بنى النضير فى نفر من قومه إلى مكة يستحثونهم فى الوقوف معهم فى صف واحد والخروج جميعاً لملاقاة المسلمين ويحسن هنا أن ننقل بعض ما سجلته كتب السير فى هذا الشأن مكتفين بنقل ما كتبه بن هشام مع بعض الاختصار .

يقول ابن هشام حدثنا ابن إسحاق بسنده قال قالوا وكان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود منهج سلام بن أبى الحقيق النضرى وحى ابن أخطب النضرى والكنانة بن أبى الحقيق النضرى وهؤلاء من قيس الوائلى وابو عمار الوائلى فى نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ خرجوا حتى قدموا على قريش مكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ . وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصل فقالت لهم قريش يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفدينا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى الحق منه وهم الذين قال الله فيهم [ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله

ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً] إلى قوله تعالى [أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله [أى النبوة] فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً][1].

[اليهود تحرض غطفان أيضا وتذكر لها إتفاقهم مع قريش] .

قال : فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب الرسول فاجتمعوا لذلك واستعدوا له ، ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان من قيس غيلان فدعوهم إلى حرب رسول الله وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وإن قريشا قد بايعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه ثم يستطرد بن هشام فى ذكر خروج المشركين للقتال ويأخذوا فى ذكر أسماء قوادهم ليعود مرة ثانية ليتحدث عما فعله الرسول والمسلمون فيقول : [فلما سمع رسول الله بهم وما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة فعمل فيه رسول الله ترغيبا للمسلمين فى الأمر وعمل معه المسلمون فيه فـــدأب فيه ودأبوا وابطأ عن رسول الله وعن المسلمون من عملهم هذا رجال من المنافقين فجعلوا يورون بالضعف عن العمل ويتلون إلى أهليهم بغير علم من الرسول ولا إذن .

وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجـــة التى لابد منها يذكر ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم ويستأذن فى اللحوق لحاجته فيأذن له فإذا أقضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمل رغبة فى الخير واحتسابا له فأنزل الله فى أولئك من المؤمنين .

[إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع

---

(١) النساء ٥١ — ٥٥

لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم[1]].

فنزلت هذه الآيه فى المسلمين من أهل الحسبة والرغبة فى الخير والطاعة لله ولرسوله ﷺ ثم قال تعالى للمنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل ويذهبون بغير إذن من النبى — ﷺ [لا تجعلوا[2] دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا[3] فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم][4] .

ويمضى ابن هشام بعد ذلك فى سرد وما كان لرسول الله من آيات بينات لهذه الغزوة مما هو مسجل فى الأحاديث النبوية وعمرت به كتب السيرة ويظل فى استرساله يذكر ما كان بعد أن أحاط الأحزاب المدينة وعسكر المسلمون فيها حتى جاء رسول الله .

ولقد طوينا الذكر على هذه التفاصيل خشية الإطالة، ومن أراد الاطلاع عليها فأمرها ميسور وذكرها منشور .

لكن نود أن نقف وقفة قصيرة هنا قبل الانتقال إلى بيان ما جاء فى القرآن الكريم فى شأن هذه الغزوة أقول : أقف هذه الوقفة لنرى صنيع هؤلاء وهؤلاء من تلكم الاحناف التى كان لها دور كبير فى هذه الغزوة ولنبدأ باليهود لنرى ما كان منهم إنهم الذين بدأو بتحزيب الأحزاب

---

(١) النور / ٦٢

(٢) النور / ٦٣

(٣) اللوذا : الاستتار بالشىء عن الهرب .

(٤) ميسرة بن هشام ج ٣/٦٨ مع بعض الاختصار .

وتجميع الجموع وليتهم كان عندهم ذرة من الإخلاص حتى لدينهم الذى يدعون الإنتساب إليه لقد كشف صنيعهم مقدار بعدهم عن الحق وأظهر أنهم فى كل ما فعلوا ويفعلون لا يقصدون نصرة دين وإنما هو الهوى والافكيف يكون عندهم دين مع تفضيلهم الشرك على التوحيد إن هذا فى منطق العقل لعجيب أما المشركون فأمرهم ظاهراً نهم يريدون اقتلاع الإسلام من جذوره ويودون لو قضى على المدنية ومن فيها وهم على شركهم ربما كانوا أصدق من اليهود حيث إن ظاهرهم وباطنهم على حد سواء أما المنسبون إلى الإسلام فقد فصلت آيات سورة النور أمرهم فالذين استحقوا منهم اسم الإيمان، ووصف المؤمنين على حقيقة هم الذين قاموا مع رسول الله ﷺ قلباً وقالباً ظاهراً وباطناً لم يطلبوا إلا ثواب الله وما عند الله خير وأبقى أما غير هذه الصفوة سوف تكفل الآيات التى نزلت فى هذه الغزوة ببيان شأنهم فمنهم المنافقون ومنهم الذين فى قلوبهم مرض إلى غير ذلك.

وبعد هذا العرض السريع لغزوة الأحزاب كما جاءت فى كتب السير يحق لنا أن نرجع إلى كتاب الله المجيد لنقرأ فيه ونعرف منه ماذا كان فى تلك الغزوة،

يقول الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾[1].

بهذا النداء الإلهى نادى الله سبحانه وتعالى المؤمنين مذكراً لهم بنعمه عليهم فى هذه الغزوة بعد أن أحاط بهم الأعداء من كل جانب والناظر فى هذه الآية وهى التى افتتح بها الحديث عما كان فى هذه الغزوة، يجدها قد أجملت كل أحداث الغزوة، أجملتها فى أسلوب قد بنى جمع البداية والنهاية

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٩

إلى أن النفوس كادت تبلغ الحلقوم من الخوف[1] وفي مثل تلك الأحوال تختلف مواقف الرجال فيظهر كل على حقيقته. وتختم هذه الآية لقوله تعالى [وتظنون بالله الظنونا] فيكون للكل مسلمين وكافرين. أما المسلمون فكان ظنهم الظن الحسن ظنوا أنهم مع رسولهم منصورون وأما أعداهم من كافرين ومنافقين فكان ظنهم ظن السوء وهو أن الهزيمة لا بد واقعة على المدينة وأهلها.

ولما وصف الله شدة الأمر يوم الخندق قال: [هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً][2].

أي امتحنوا واختبروا ليظهر لك حسن إيمانهم وصدقهم وصبرهم على ما أمرهم الله عليه من جهاد وأعدائهم فظهر من كان ثابتاً قوى الإيمان ومن كان ضعيفاً فيه وحركوا بالخوف تحريكا شديداً، وأزعجوا إزعاجاً عظيما وذلك لأن الخائف يكون قلقاً مضطرباً لا يستقر في مكان.

وبعد ذلك يحكي القرآن ما قاله المنافقون حينئذ بقوله: [وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا][3].

لجمع الله في هذه الآية بين المنافقين وبين من في قلوبهم مرض وهؤلاء وأولائك.

لقد اجتمعوا على تلك الكلمة [ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً] يعنون أن ماوعدهم الله على لسان رسوله ﷺ إنما هو زيف وباطل: وذلك

---

(١) زاد المسير ٦ / ٢٥٨

(٢) سورة الأحزاب ١١

(٣) سورة الأحزاب ١٢

فى آية واحدة، فالأحزاب قد جمعوا جموعهم وحاصروا المدينة والفوتان ليستا متكافئتين فى ميزان الحساب ولكن النصر يأتى من عند الله، فإذا كانت جنود الأعداء تحيط بالمدينة والمسلمون يرونهم فإن لله جنوداً لم يرها أحد لم يرها المسلمون ولم يرها المشركون)وما يعلم جنود ربك إلا هو) .

أرسل الله عليهم الريح ففعلت فيهم مافعلته يقول بن الجوزى(والريح التى أرسلت عليهم هى الصبا، حتى أكفأت قدورهم ونزعت فساطيطهم، والجنود والملائكة ولم يقاتل يومئذ وقيل إن الملائكة كانت تقلع أوتادهم وتطفىء نيرانهم وتكبر فى جوانب عسكرهم فاشتدت عليهم فانهزموا من غير قتال[1] .

وبعد ذلك العرض المجمل للغزوة يأتى بتفصيل لبعض ما كان فيها فيصور القرآن كيف كانت إحاطة الكفار بالمدينة فيقول [إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً[2] ، وفى هذا تصوير وبيان لكل الجنود المغيرين ووصف لأماكنهم فهم قد أحاطوا بالمسلمين من فوق الوادى ومن أسفله ثم إن المؤمنين قد زاغت أبصارهم ومعنى ذلك أن الأبصار مالت وعدلت فلم تنظر إلى شىء إلى عدوها مقبلا من كل جانب وكادت قلوبهم تخرج من أماكنها من شدة ما حل بها .

يقول قتادة فى تفسير قوله تعالى [وبلغت القلوب الحناجر] شخصت عن مكانها فلولا أنه ضاق الحلقوم عن أن تخرج لخرجت وذهب ابن قتيبة

---

(١) زاد الميسر جـ ٦ ص ٢٥٧

(٢) الأحزاب ١٠ ، ١١

أنهم قالوا : كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله ، وهذا والله الغرور .

وإذا كان هذا قول المنافقين ومن معهم فإن هناك آخرين قالوا أقولا هى الأخرى لا تصدر عن عمر قلبه الإيمان لقول الله تعالى (وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤلا قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) (١) .

يعلوا صوت هذه الطائفة بهذا النداء [يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا] إن المنادى بعض من سبق ذكرهم فى الآية السابقة . بعض المنافقين ينادون المؤمنين وهم يريدون تثبيطهم وادخال الروع فى قلوبهم (لا مقام لكم) ليس هناك مكان يصلح للاقامة .

وليس هناك استقرار وثبات . قالوا ذلك بعد أن خرج النبى ﷺ وأصحابه إلى حيث الخندق . فهم يستحثونهم على ترك أماكنهم ويأمرونهم بالرجوع ، ولكن إلى أى شىء يرجعون ، وعمن يرجعون ؟ هناك تفسيرات شتى لكن أى تفسير منها لا يليق إلا بأولئك المنافقين لقد قيل إنه أمر بالرجوع إلى المدينة وترك أماكن القتال .

أما الرأى الثانى فيقول إن المطلوب إنما هو الرجوع عن الإسلام إلى الكفر .

---

(١) الأحزاب من الآية ١٢ — ١٧

أما الرأى الثالث فيرى أنهم يقيلون الرجوع عن القتال إلى طلب الأمان (ويستأذن فريق منهم النبي يقولون أن بيوتنا عورة وماهى بعورة أن يريدون الافراراً).

لم يكتف المنافقون بما حاولوه من التخذيل . وماطلبوه من الرجوع من أصحاب الرسول مما سبق توضيحه بل كان لفريق منهم دوراً إيجابى ارآه وهو مقام به بنفسه فإذا كان من دعوهم على ترك إماكنهم قد يستجيبون وقد لايستجيبون فعليهم هم أن يؤدوا دورهم المرسوم وهو أن يتركوا هم الأماكن التى خصت للقتال ولكن كيف يكون ذلك؟

لابدلهم من اعذار يعتذرون بها لعلها تكون وسيلة إلى تحقيق اغراضهم وهنا يفضح القرآن صنيعهم لقد قالوا فى تبرير طلبهم الرجوع إلى المدينة [ان بيو تناعوره] مكشوفة ليست بحصينة عن بن عباس ومجاهد وقيل معناه أن بيوتنا خالية من الرجال يخشى عليها السراق عن الحسن وقيل قالوا بيوتنا مما يلى العدو ولا نأمن على أهلينا عن فتاوه[1].

وحينما يقولون ذلك يجيء تكذيبهم من عند الله سبحانه وتعالى فى قوله (وما هى بعوره أن يريدون الأفرارا) هذا هو قصدهم الفرار من القتال والهرب من نصر المؤمنين وزيادة فى وهنك أستارهم وبيان أن ماقالوه وما اعتذروا به من خوفهم على البيوت ومن فيها وما فيها يقول الله تعالى : (ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وماتلبثوا بها الايسرا) ومعنى ذلك والله أعلم أن هؤلاء المنافقين الذين كانوا يطلبون الأذن بالعوده لحماية بيوتهم لو دخل عليهم الأحزاب المدينة من أقطارها أى جوانبها ونواحيها ثم سألوا أولئك المنافقين

---

(١) مجمع البيان ٣٤٧/٨